مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي
ISSN 1112-9255/E-ISSN 2588-2414
المجلد10 العدد01 – جوان 2023

OEB Univ. Publish. Co.

الازدواجية الثقافية وتداعياتها حول هندسة الإدراك

Cultural Duality and its Implications for Cognitive Engineering

أم الخير شتاتحة [1]*

[1] مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة الأغواط- الجزائر،

o.chetatha@crsic.dz

تاريخ التسليم:19-1-2023 تاريخ التقييم: 3-2- 2023 تاريخ القبول:6-6-2023

الملخص

يبيّن لنا واقعنا اليوم وبوضوح، خصوصا بعد التغيير السريع الذي شهدته مجتمعاتنا كسمة من سمات الحداثة، ما للعولمة من أثر كبير في استيراد مفرط لهوية يراد منها أن تكون جماهيرية، شاملة مقوماتها، قيمها ومعاييرها...الخ.

مما أدى إلى تزايد الشعور بالاغتراب وخلق الفجوة في ظل العولمة الثقافية كإحدى أكبر المقاربات تداخلا، وما يلحق ذلك من مخاطر الإلغاء، الإقصاء، الذوبان والانصهار، بل وحتى الافتراض الثالث لما يعرف بالانبعاث والاستنهاض.

الكلمات المفتاحية: الهوية، العولمة، القيم، الازدواجية الثقافية، الجماهيرية.

Abstract

Our reality today, especially after the rapid change in our rapidly urbanized societies as a feature of modernity, clearly shows us the significant impact of globalization on the excessive importation of an identity intended to be mass, including its components, values and standards... Etc.,

This has led to a growing sense of alienation and the creation of a gap under cultural globalization as one of the most overlapping approaches, with the consequent risk of cancellation, exclusion, melting and fusion, and even the third assumption of what is known as rebirth and rise, resulting in volatility and instability in both inherited and acquired cultural values, and the inability of a large number of members of society, particularly young people, to choose from existing conflicting cultural values that may reflect their identity.

Keywords : Identity, Globalization, Values, Cultural Duality, Mass.

***المؤلف المراسل: أم الخير شتاتحة، الإيميل: o.chetatha@crsic.dz**

1.مقدمة:

لقد بات واضحا أن الاختراق الثقافي في ظل التغيرات العالمية المعاصرة، أسفر عن تراجع كبير لدور العملية الثقافية والاجتماعية للمجتمعات خصوصا النامية منها، تلك العملية التي كانت الأكثر عراقة وتأثيرا في تطورها وإدارتها بسبب الاختراق الكاسح للعمليات الاقتصادية والإعلامية والثقافية...الخ، فعلى حد تعبير جي روشي Guy rocher أنه " كل تحول في البناء الاجتماعي يلاحظ في الزمن ولا يكون مؤقتا أو سريع الزوال لدى فئات واسعة من المجتمع، ويغير مسار حياتها".

هذا وانطلاقا من التغير السريع الذي شهدته مجتمعاتنا كسمة من سمات ما بعد الحداثة، يمكن القول أن الهوية كانت المستهدف الأول في خضم هذا الصراع القيمي والتدافع الحضاري القائم، بحيث بات واضحا أن العولمة بآلياتها المعاصرة تستهدف المنظومة القيمة للأفراد، يترتب عنه تذبذب وعدم استقرار في القيم الثقافية الموروثة والمكتسبة على حد سواء، وعدم مقدرة عدد كبير منهم على الانتقاء بين القيم الثقافية المتصارعة الموجودة والتي قد تعكس هويتهم.

– فإلى أي مدى يمكننا تحليل ومناقشة هذه الازدواجية الثقافية التي أسفرت عنها العولمة بين ما هو ثابت متأصل وما هو معولم مستورد ؟

2. التغيرات العالمية المعاصرة والمنظومة القيمية

إن التغيرات الاجتماعية والثقافية المتسارعة اليوم تجعل الإنسان يعيش مفاهيم ثقافية قيمية بالغة الخطورة والأهمية في الوقت ذاته، تضع الشباب اليوم أمام قيم جديدة غير مألوفة يتوجب عليه أن يتمثلها، مما يؤدي إلى إحداث خلل في تكيفهم مع غزو ثورة الحاسبات ويعرض الشخصية لموجة متضاربة من القيم تحدث انفصام اجتماعي وبالتالي هندسة الادراك. **(الزيود، 2006، ص. ص 23.22)** .

وبالعودة إلى وجهة نظر تالكوت بارسونز parsons talkott في كون القيم عنصر في نسق رمزي مشترك يعتبر معيارا، أو مستوى للاختيار بين بدائل التوجيه التي توجد في الموقف، مقابل ما ذهب إليه اميل دوركهايم E Durkheim في اعتبارها "إحدى آليات الضبط الاجتماعي المستقلة عن ذوات الأفراد الخارجة عن تجسداتهم الفردية .

يمكن القول أن القيمة هي "المرغوب فيه" Desideratum بمعنى أي شيء مرغوب من الفرد أو الجماعة الاجتماعية، وقد يكون موضوع الرغبة ماديا أو علاقة اجتماعية أو أفكار عامة، أي شيء يتطلبه ويرغبه المجتمع. فالقيمة استخدمت لتشير إلى بعض المعايير أو المقاييس التي تستمر خلال الزمن، وتمدنا بمعايير يستخدمها الناس لتنظيم وترتيب رغباتهم المتنوعة. ولذلك طالما أن الناس يغفلون أو يقيمون الأشياء والأفعال والأفكار طبقا لمقياس المسموح والمرفوض، فإن هذا يشير إلى أن هؤلاء الناس يستجيبون إلى نسق قيمي **(بيومي، 2002، ص. ص 140. 139) .**

عموما يمكن القول أن بؤرة بناء الشخصية تكمن في القيم التي تتغلغل في أعماق الفرد وجوهره وذاته، وبالرغم من أنها تكمن في الأعماق إلا أنها قد تتعرض للتغيير الاجتماعي باعتباره ضرورة لكل المجتمعات، ولا بد من أن يستجيب لهذا التغيير سواء أكانت استجابته سريعة أم بطيئة، مما يعني أنه لا بد من تعديل المواقف، والاتجاهات، ومراجعة للقيم، والأخذ بقيم جديدة لم تكن شائعة من قبل، وهي ما تدعى عند المفكرين بقيم الحداثة.

لنقدم تاليا أهم الآثار الثقافية والفكرية الناجمة عن ما خلفته العولمة وتداعياتها، والمتمثلة وفق تصنيف ماجد الزيود في ما يلي:

- مظاهر الاحساس بالدونية الثقافية والحضارية لدى فئة كبيرة من الشباب.
- سيادة اللغة الانجليزية مع تراجع واضح لاستخدام اللغة الأم.
- تراجع الإنتاج الثقافي المحلي.
- تسويق الثقافة الغربية من خلال السلطة الرمزية للصورة (أزياء، ماركات تجارية، رموز، اللباس، أنماط السلوك... الخ).
- نشر مفهوم الاقتصاد المعرفي حيث تتحول المعلومة (المعرفة) إلى سلعة استراتيجية ومصدر جيد للربح، وفرض قوانين حماية الملكية الفكرية .

3. العوامل المؤثرة في تكوين الهوية الاجتماعية

انطلاقا من اعتبار الهوية من منظور علم النفس " الشيء نفسه أو مثيله من كل الوجوه، الاستمرار والثبات وعدم التغير"، وفي الفلسفة " حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره، وتسمى

أيضا وحدة الذات"، في حين هي من منظور علم الاجتماع " عملية تمييز الفرد لنفسه عن غيره، أي تحديد حالته الشخصية" **(العاني، 2009، ص 42).**

يمكن القول أن الهوية الاجتماعية على حد تعبير **ريجارد جنكز** Jencks تصورنا حول من نحن ومن الآخرون وكذلك تصور الآخرين حول أنفسهم وحول الآخرين محددا عواملها في ما يلي:

-البيئة الاجتماعية: إن أزمة الهوية تختلف من مجتمع لآخر ومن حضارة لحضارة أخرى، فالأزمة لا تكون استجابة لتغيرات داخل الفرد نفسه، وإنما تكون نتيجة لاستجابة البيئة التي يعيش فيها للتغيرات التي تطرأ عليه، فتفسير الأزمة يجب أن نبحث عنه في الظروف التي تحيط بالفرد، خاصة مع ما يشهده العالم من ثورة تكنولوجية متسارعة، فالشخص إما أن يشعر بكبر حجم الهوة في مقارنته بالدول المتقدمة فيصبح مفهوم الهوية مهزوزا ومضطربا، أو يشعر بالانبهار بتلك الدول، فيؤدي إلى النظرة الطبقية في المجتمع الواحد ،الأمر الذي ينتج عنه تأخير في التغلب على أزمة الهوية.

-التأثيرات المعرفية: تعتبر القدرة المعرفية للفرد عاملا مؤثرا في اكتسابه الهوية الشخصية، ذلك لأن الفرد يجب أن يكون قادر على تحديد إمكاناته وقدراته بصورة موضوعية، وإذا كان بعضهم يرى أن هذه القدرة تعين الفرد على بحثه عن هويته، فإن هناك من يرى أن هذه القدرات تزيد كذلك من صعوبة عملية البحث، لأن الفرد يصبح قادرا على تخيل كل أنواع الإمكانيات أو الاحتمالات بالنسبة لهويته.

-التأثيرات الثقافية: تعد البنية الثقافية عاملا مؤثرا في تشكيل الهوية، وذلك بما توفره هذه الأخيرة من تعدد الخبرات والنماذج التي تتيح للفرد الفرصة لتحقيق هوية متكاملة، ونظرا لأن الثقافة عالم منفتح خاصة في ظل التطور التكنولوجي والصراع الحضاري فإنها تؤدي دورا سلبيا في تشكيل الهوية إذا لم يتم ضبطها وفقا للمبادئ والمعايير الاجتماعية السائدة.

-التأثيرات التكنولوجية: لقد أحدثت الثورة التكنولوجية وغيرها من عوامل التغير الثقافي إعادة في تشكيل الكثير من معارفنا ومفاهيمنا عن الحياة، وتقويض أغلب تصورات الإنسان عن ذاته وعن عالمه، الأمر الذي أدى بدرجة كبيرة إلى التذبذب وعدم الاستقرار في القيم الموروثة والمكتسبة على حد سواء، وعدم مقدرة عدد كبير من أفراد المجتمع على التمييز الواضح بين ما هو صواب وغير صواب .

هذا وقد لخصت **حنان المزوغي** عملية تشكيل الهوية لدى الشباب في النقاط التالية :

- الاختلاف في التنشئة ينعكس على الاختلاف في الوسائل والطرق المستخدمة لتشكيل الهوية فمثلا الأفراد الذين ينشئون في بيوت تتصف بالإنكار أو الرفض يعانون من غموض في الهوية.
- كلما كانت الخيارات والبدائل التي يتعرض لها الفرد خاصة في فترة المراهقة كثيرة كلما كان احتمال مرورهم بأزمة الهوية أكثر.
- كلما توفر للفرد نماذج تتمتع بالنجاح توافر الاحتمال الكبير لأن يشكل الفرد التزاما.
- إن طبيعة التوقعات الاجتماعية المتعلقة باختبارات الهوية التي تنبثق من الأسرة والمدرسة وجماعات الرفاق ستسهم في تطوير هوية معينة، فالشخص الذي يتعرض لجماعة اجتماعية ذات تساؤلات قليلة غالبا ما تقل معاناته من أزمة الهوية مقارنة بالجماعات التي تكون فيها التساؤلات أكثر شيوعا.
- إن تزويد الفرد في مرحلة التنشئة بالأسس الصحيحة يساعده على أن يكون أكثر نجاحا في مواجهة أزمة الهوية.

4. التنوع الثقافي وتأثره بالمنتجات الاستهلاكية ذات الدلالات الاجتماعية والرمزية

ندين **لإدوارد تايلور** بأول تعريف للثقافة أو الحضارة بمعناها الأناسي الأوسع في أنها " ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والأعراف والقدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع". فهي لا تعبر عن أي شيء واقعي محسوس، وإنما عن تجريد، وغالباً ما يستخدم كتجريد غامض. **(Browen, 1940, p. 66)**

أما **محمد عابد الجابري** فيقول:" إن ما نقصده بالثقافة هو ما يجعل الإنسان مثقفا بالمعنى الاصطلاحي المعاصر للكلمة، والمثقف في المجال التداولي العربي الراهن هو من مهنته استهلاك المواد الفكرية والمساهمة في إنتاجها ونشرها" .

ليضاف بعدها مصطلح الجماهيرية في دراسات الاعلام والاتصال بأنها:" المواقف الجديدة التي تنشرها وسائل الاتصال والإعلام لدى الجماهير الواسعة وبصفة اصطناعية، وتمتاز بأنها ثقافة

مصطنعة تخضع لمقاييس السوق وفق مبدأ العرض والطلب وظهرت بظهور وسائل الاتصال الحديثة" **(العيفة، 2003، ص 45).**

بمعنى أدق يقصد بها مثلما اصطلح عليه **عزي عبد الرحمن** إشباع الجماهير بمواد إعلامية واتصالية وهمية تجعلهم في حالة وعي مُزَيف دائم فيما يتعلق بواقعهم الاجتماعي، حيث تروج عبر وسائل الاتصال الجماهيرية من أجل ترسيخ قيم امتثالية تنميطية واستهلاكية، وتجد سبيلها الى المجتمعات المستقلة لها على شكل أحزمة ثقافية مصنعة: أفلام، مسلسلات، أغاني، إشهار لمختلف السلع الترفيهية الأخرى .

عموما لقد كانت الثقافة، بمعناها الانثروبولوجي الواسع – من بين العناصر التي تأثرت بالتغيرات العالمية المعاصرة، فقد برزت مسألة الهوية والمواطنة بشكل بارز في هذا العصر الذي يشكل تحديا لكل ما هو قومي أو وطني أو محلي.

وتتسم هذه التأثيرات الثقافية بالانتقال الحر للأفكار والمعلومات عن طريق مساهمة المحطات الفضائية في تشكيل وعي الجماهير، مما أسهم في انتفاخ الثقافات العالمية المختلفة، وتأثر بعضها بالبعض الآخر، وتسهيل الاستفادة من التجارب الثقافية العالمية، وشيوع مفاهيم الحوار لمناقشة القضايا العالمية المشتركة، والتي أصبحت أرضية لبروز قيم إنسانية عالمية مشتركة تتخطى الخصوصيات، كما اتسمت هذه التأثيرات في تبني اللغة الانجليزية، بوصفها لغة تخاطب عالمية، ونشر الثقافة الاستهلاكية عالميا، وفي ظل التغيرات العالمية المعاصرة ستبرز بوضوح مسألة الهوية والمواطنة العالمية، التي ربما ستحل تدريجيا وربما على المدى البعيد– محل الولاءات والانتماءات الوطنية، فالعولمة تطرح مسالة الانتماء بحدة خاصة، ذلك أن أحد أبرز الانتقادات الموجهة إليها يتمثل في أنها تقضي على الهويات الوطنية، حيث تحاول إتباع المنخرطين فيها لثقافتها الخاصة التي تتعارض مع الثقافات الوطنية .

وبما أن الإنسان هدف الثقافة، فمن الواضح أن الإنسان خاصة في المجتمعات النامية في أخريات الألفية الثالثة أصبح ميالا إلى الاستهلاك، ضعيف الإحساس بالقيم الوطنية والقومية والاجتماعية، حريصا على تأمين حاجاته دون النظر في شرعية الأسلوب وأخلاقياته، رافضا مجتمعه، راغبا في الهجرة منه، لما يعرف بتنميط الثقافة.

إذ أنه لم يحدث في التاريخ أن أصبح العالم موحدا أكثر مما نشهده، فقد تمكنت الثقافة الاستهلاكية من توحيد شباب العالم كما لم تتمكن أية قوة أو مؤسسة أخرى من توحيدهم في التاريخ، فسلع هذه الثقافة والتي تأتي من مصدر واحد موجودة في كل المجتمعات، وأخذت هذه المنتجات الاستهلاكية دلالات اجتماعية ورمزية تتجاوز قيمتها المادية المحسوسة لتكتسب قوة وربما حياة مستقلة وتدفع في اتجاه صهر العالم استهلاكيا، و ربما دمجه ثقافيا وتجاوزه بذلك الحضارات والمجتمعات والبيئات والجنسيات والطبقات .

هنا يظهر المفكر العربي **طلال عتريس** مكامن خطورة العولمة على الجانب القيمي والأخلاقي، حيث يقول: "إن مسألة نقد العولمة في مسألة القيم والمفاهيم يتركز على قضيتين، ثنائي العنف والجنس في وسائل الإعلام والسينما العالمية وفي القنوات الفضائية التي دخلت اليوم إلى كل بيت، وعلى ما يمكن أن تسببه من تدهور في السلوك والقيم في مجتمعات لا تزال تقيم وزنا كبيرا لقيم العفة والاحتشام، وتنميط القيم ومحاولة جعلها واحدة لدى البشر في المأكل والملبس والعلاقات الأسرية بين الجنسين، وفي كل ما يتصل بحياة الإنسان الفردية والجماعية، خصوصا قيم الاستهلاك التي تعتبر إحدى أهم ركائز اقتصاد العولمة .

5. الشباب بين أزمة الهوية والعولمة الثقافية

من المتعارف عليه أن العولمة ما هي إلا رسملة العالم في ظل هيمنة دول المركز وسيادة النظام العالمي الواحد، وبالتالي صياغة ثقافة عالمية واحدة تضمحل إلى جوارها الخصوصيات الثقافية، كما تعد منظومة من المبادئ السياسية والاقتصادية، ومن المفاهيم الاجتماعية والثقافية ومن الأنظمة الإعلامية والمعلوماتية، ومن أنماط السلوك ومناهج الحياة، يراد بها اندماج العالم كله على قيمها وتبنيها، والعمل بها والعيش في إطارها. هي أيضا تلك العملية التي يتم من خلالها محاولة دمج العالم ليكون وحدة واحدة تذوب فيها الشؤون الثقافية والاقتصادية والسياسية للدول القومية، ويتكون من خلال هذه القوة الجديدة ثقافة عالمية موحدة تتخطى الحدود القومية للدول المختلفة

(فتحي، 2010، ص 323) .

في حين أن العولمة الثقافية تعني بروز عالم بلا حدود ثقافية، حيث تنتقل الأفكار والمعلومات والأخبار والاتجاهات القيمية والسلوكية بحرية كاملة على الصعيد العالمي، وبأقل قدر من التدخل من قبل الدول.

لقد أسهمت ثورة الاتصالات الحديثة في فك نطاق العزلة المكانية التي كانت تعيشها الكثير من المجتمعات، كما أنها أثرت في طبيعة وتركيبة الأنساق الثقافية المحلية، ومكوناتها من أنماط القيم والتفكير والسلوك، كما غيرت في المنطلقات العقلية والقناعات الفكرية لدى الكثير من الأفراد، بمعنى أن ينتقل اهتمام الفرد من ثقافته المحلية إلى الثقافة العالمية دون أن يهمش هويته الوطنية، هي أيضا انتقال تركيز واهتمام الإنسان من المحلية إلى العالمية، بمعنى أن يزداد الوعي بعالمية العالم ووحدة البشرية، وبروز مفهومات جديدة للهوية والمواطنة العالمية التي قد تحل محل المفهومات المحلية لها. فعندما تلحق الثقافة بالعولمة تصبح هويتها أكثر تحديدا، وخصائصها أكثر وضوحا، فالثقافة قيم وأنماط سلوك وعادات ومفاهيم وأخلاق، إنها مجموع العناصر التي لها علاقة بطرق التفكير والشعور والفعل، كذلك لا يمكنها أن تتموه بالمصالح والمنافع التي تميز السلع المادية، فيها تتميز المجتمعات وتختلف بعضها عن بعض، بل تشعر بالاعتزاز والتمايز بالهوية والانتماء **(عبد الغني، 2006، ص 294).**

ومن نتائج هذه الثورة الصامتة على حد تعبير **فؤاد البكري** التي أربكت المنظومة التقليدية وأدخلت الفزع على قيمها، أن الشاب فقد الثوابت الثقافية التي يبني بواسطتها هويته، ذلك أن الهوية تحتاج إلى مراجع ثقافية وقيمية واضحة وثابتة، يعتمدها الفرد لبناء شخصيته، إضافة إلى أنها تساعد وتؤدى إلى صياغة ثقافة عالمية لها قيمها ومعاييرها، هي ثقافة السوق، وتجاوز الثقافة النخبوية وسلب الخصوصية، والتأكيد على الجانب والنجاح الفردي، وتجميع الثروة وتهميش الثقافة الوطنية واحتكار الصناعة الثقافية .

عموما يمثل التحالف بين الثقافة والتقانة ذروة القدرات التي تقدمها العولمة في الحقل الثقافي، فهي تمكنت فعليا من اختراق الحدود الثقافية انطلاقا من مراكز صناعة وترويج النماذج الثقافية ذات الطابع الغربي، وألغت بالتالي إمكانيات التثاقف كخيار، يعني الانفتاح الطوعي على المنظومات الثقافية المختلفة عبر آليات التأثر والتأثير والتفاعل المتبادل، لصالح الاستباحة الكاملة للفضاء الثقافي الذي يعزز قيم الغالب، ويؤدي إلى استتباع المغلوب واكتساح دفاعاته التقليدية، وبالتالي لا تترك أمامه من خيارات خارج حدود الانعزال أو الذوبان، سوى هوامش محدودة في

مواجهة تكنولوجيا الإخضاع، وصناعة العقول، وهندسة الإدراك، لغرض الغلبة الحضارية وكسر الممانعة الثقافية، ودفعها إلى الانكماش والتحول إلى طقوس وأشكال فلكلورية تسجنها في مشاهد الأسطورة والتراث والتاريخ، وتدفعها إلى الغربة الحضارية والخروج من التاريخ. بمعنى" التفاعل الديناميكي لنموذجين ثقافيين متعاكسين، حيث يعيش العامل الاجتماعي التأثيرات المضاعفة على شكل نزاعات ثقافية في إطار قيم" **(TOUALBI, p. 204)**

6. خاتمة:

إن التغيرات الناتجة عن التحولات الاجتماعية والمعرفية التي تنادي للثقافة الجماهيرية، وتوافر البدائل، وتنوع طبيعة القضايا الفكرية حول نوع الإنسان الذي يستطيع مواكبة المتطلبات المتجددة، جعلت المجتمعات عامة متعددة بتعدد الأبعاد والأهداف المسطرة، نتيجة تغيير أنظمة التنشئة الاجتماعية، وطبيعة جهودها، مما أدى إلى طول فترة تشكيل وإعادة تشكيل الهوية الاجتماعية وهندسة إدراك أفراد المجتمع، لغرض الغلبة الحضارية وكسر الممانعة الثقافية، واضطراب أسسها أو إحداث فشل في العديد من مجالاتها، مما خلف فردا يحمل ازدواجية ثقافية في الآن ذاته بين ما هو أصيل ثابت وما هو معولم مستورد.

7. قائمة المراجع:

1. جمال العيفة،(2003) الثقافة الجماهيرية، منشورات، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر.
2. خليل نوري مسبهر العاني، (2009)، الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، سلسلة الدراسات الإسلامية المعاصرة، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، العراق، ط 1 .
3. عماد عبد الغني، (2006)، سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
4. فتحي. ش، (2010)، العولمة في عالم متغير، دار قرطبة للنشر، الرياض.
5. ماجد الزيود، (2006)، الشباب والقيم في عالم متغير ، دار الشروق، عمان، ط1.
6. محمد أحمد بيومي، (2002)، علم الاجتماع الثقافي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، (ب.ط).
7. Browen.C, (1940), culture and personality, londenuni press, London.

8. TOUALBI .N, Acculturation des valeursetutilisations des rites en Algerie. Contribution psychologique a la theorie du changement social.